ملف الكنيسة المصرية

دكتور محمد مورو



١٠ صفية زغلول - القصر العيني - الدور الرابع
شقة ٢٣ - ت: ٣٥٦٢١٣٥ - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

قراءة فى ملفات التاريخ القديم

*** لعل قرار عودة الكنيسة القبطية هو فرصة طيبة لنا لمناقشة تلك القضية الشائكة . بما تحمله من ملابسات وبما لها من خصوصية وحساسية خاصة .**

ينبغى لنا فى البدء أن نرجع قليلا أو كثيرا الى الوراء لكى نفهم تاريخ وطبيعة الكنيسة فى مصر حتى يتسنى لنا تبنى موقفاً محدداً تجاهها .

جاءت المسيحية الى مصر مبكرا ــ لقد حملها معه القديس مرقص نفسه ، أحد حواريى المسيح وكتب القديس مرقص الإنجيل الذى يحمل اسمه أيضا .

ولقد واجه المسيحيون فى مصر موجة بعد موجة من الاضطهاد فى «العصر الرومانى خصوصا تحت حكم «ديسيوس» «وفاليريان» «وديو كليتان» فى القرن الثالث وبداية القرن الرابع بدعوى اختلاف الديانة المسيحية عن ديانة الأمبراطورية .

ولما دخلت الأمبراطورية الرومانية فى المسيحية على يد الأمبراطور قسطنطين فإن الاضطهاد قد توقف قليلا ليعود بعدها أشد قسوة تحت دعاوى أخرى .

حاولت الأمبراطورية الرومانية الخلط بين ما لقيصر ومالله . الا أن الكنيسة القبطية رفعت ذلك على يد الأنبا أثنا سيوس فى عهد الأمبراطور «قسطانطيوس» الذى طارد أثناسيوس ووضع جائزة لمن يأيته برأسه وهكذا وجد أثنا سيوس نفسه مطاردا لمدة عشرين عاما حماه خلالها الرهبان والفلاحون .

كان أثنا سيوس قد كتب الى أمبراطور بيزنطة يقول «لا تقحم نفسك فى المسائل الكنسية ولاتصدر إلينا أمرا بشأن هذه المسائل لقد أعطاك الله المملكة وعهد الينا بأمور الكنيسة — وليس مسموحا لنا أن نمارس حكماً أرضيا وليس لك سلطان أن تقوم بعمل كنسى .

وعلى هذا الأساس فقد أصبحت الكنيسة القبطية مستقلة عن الكنيسة الرومانية وأصبح اسم أثنا سيوس علما على القبطية — الأرثوذكسية .

وكان من نتيجة رفض الكنيسة القبطية للخضوع لسلطان الأمبراطور البيزنطى أن تعرضت تلك الكنيسة لألوان شتى من صنوف الاضطهاد والعنت .

واستمرت الكنيسة القبطية فى مصر فى ممارسة استقلالها .

وهكذا وجد الأنبا «ديو سكورس» خليفة اثنا سيوس نفسه محروما بسبب رفضه لمقررات مجمع كالدونيا ٤٥١ م حول طبيعة المسيح .

ووقف الشعب القبطى مع الأنبا «ديوسكورس» ، فقد رفضوا جميعا أن يعترفوا بقرارات كالدونيا .

وكانت النتيجة أن خرج البطريرك من الكنيسة ومن المدينة ماشيا حافيا .

ووقف الشعب القبطى للبطريرك الجديد المصنوع فى روما ومنعوه من دخول الكنيسة فى الإسكندرية وعندما تدخل جنود الأمبراطور فإن مذبحة هائلة حدثت للناس على أبواب الكنيسة حتى تمكن الجنود من إدخال البطريرك الجديد .

ووسط اضطهاد عنيف ودام أصدرت الكنيسة المصرية ماسمى بقانون الإيمان ومرة أخرى يحاول الأمبراطور البيزنطى هرقل مستثمرا كل النفوذ الذى حصل عليه من حملاته العسكرية الناجحة ضد الفرس وبعد أن ينتهز الفرصة ويفرض بالقوة توحيد الكنيسة المصرية والكنيسة البيزنطية . ورغم عشر سنوات من الاضطهاد الدموى البشع فإن المحاولة لم تفلح ولم يكن هناك أى أمل لأى حل وسط لأن المسألة مسألة عقيدة واستقلال كنيسة .

وهكذا فإننا أمام كنيسة عريقة . سبقت كل الكنائس الرومانية وبالتالى الأوروبية .

كما أنها كنيسة رفضت كل محاولات الاندماج فى الكنائس الرومانية .

كما أنها كنيسة تمتلك عقيدة خاصة بها تختلف عن عقائد الكنيسة الرومانية .

كما أنها كنيسة عانت من الاضطهاد والكبت .

ـــ وفى الفترة التى عانى فيها بنيامين بطريرك الأقباط فى مصر من اضطهاد الأمبراطور البيزنطى هرقل ومعه كل الشعب .. كان هناك الفتح الإسلامى الذى جاء بالخلاص .

واستقبل أقباط مصر الفاتحين المسلمين باعتبارهم مخلصين من طغيان الرومان .

وبأحكام الإسلام عامل الفاتحون المسلمون الشعب المصرى معاملة تتسم بالسماحة والعدل والمساواة والحرية — وهى السمات الأصيلة للدين الإسلامى .

وكانت النتيجة أن لم يمض وقت طويل حتى كان الشعب المصرى يدخل فى الإسلام طواعية بل وتصبح اللغة العربية هى اللغة السائدة ويصبح المصريون جنوداً أشداء فى طلائع الجيوش العربية الفاتحة أو المدافعة عن الحضارة الإسلامية دائما .

ومما يلفت النظر أن الشعب المصرى لم يتأثر بالحضارة الرومانية والهلينيستية اكثر من ألف عام .

ولم تحدث طوال الحكم الإسلامى لمصر أى حادثة اضطهاد واحدة تتسم بالطائفية .

وتستمر الكنيسة القبطية فى الحفاظ على تراثها الذى اصبح علما عليها وهو الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية — مالقيصر لقيصر — وماالله لله .

وحينما ظهر الصليبيون فى المنطقة بعد خمسمائه سنة من دخول

الإسلام إلى مصر فإن أقباط مصر لم يظهروا أى قدر من التعاطف أو التعاون معهم .

وذلك يرجع إلى إدراك الأقباط أن الصليبيين يعتبرون أقباط مصر هراطقة وأن عقيدتهم حول طبيعة المسيح نوع من الهرطقة الدينية لا يقل فى نظرهم سوءا عن هرطقة المسلمين .

وهكذا لم يسمح الصليبيون للأقباط بزيارة بيت المقدس .

كما أن الحملة الصليبية استهدفت تذويب الكنيسة القبطية فى الكنيسة الأوروبية .

قام الصليبيون بخطف ٥٠٠ طفل من دمياط أثناء الحملة الخامسة ١٢١٩ قاموا يتعميدهم وفق العقائد الكاثوليكية .

كما أن الملك لويس التاسع ملك فرنسا حين احتل دمياط مرة أخرى قام بفرض بطريرك كاثوليكى على المدينة .

واستمرت الكنيسة دائما فى خطها العام كنيسة مستقلة من ناحية ـــ ومستهدفة للتهذيب من ناحية أخرى من قبل الكنائس الأوروبية .

وبدخول نابليون إلى مصر ١٧٩٨ وبداية الحملة الصليبية الجديدة والمسماة بالاستعمار فإن الكنيسة القبطية كانت تعرف وبتراثها الطويل مدى الخلاف بينها وبين الكنيسة الأوروبية ومدى ماعانته منها طويلا .

وانطلاقاً من هذا فإن الكنيسة القبطية لم تستجب للتعاون مع فرنسا .

وبدخول الاستعمار الأنجليزى مصر كان موقف الكنيسة لم يتغير . إلا أن الاستعمار الانجليزى قد حاول استخدام سلاح التبشير ليزرع فى التربة المصرية كنائس مرتبطة به . كنائس غير أرثوذكسية .

ولقد تصدت الكنيسة القبطية لهذا التحدى وقاومت تلك البعثات التى تشكل خطرا على عقائدها وقام البطريرك كيرلس الرابع بشراء مطبعة لمواجهة التحدى .

هذا هو الخط الرئيسى للكنيسة القبطية فى مصر والذى يتميز بما يأتى :

ــ كنيسة عريقة ــ أقدم من كل الكنائس الأوروبية .

ــ كنيسة مستقلة فى عقائدها تختلف . اختلافاً كاملًا عن الكنيسة الأوروبية .

ــ كنيسة ذات تراث محدد فى الابتعاد برعاياها عن الصراع السياسى (ما لقيصر لقيصر وما لله لله) .

ــ كنيسة عانت من الاضطهاد ومحاولات التذويب على يد الرومان ــ والصليبيين والاستعمار .

ــ كنيسة تدرك أنها لم تخضع لأى نوع من الاضطهاد على يد الفاتحين المسلمين .

الا أنه وبجوار الخط الرئيسى للكنيسة هناك خط آخر هامشى .

إن ذلك الخط يتمثل فى بعض الأقباط الذين يرتبطون بأعداء الأمة مثل «المعلم يعقوب» قائد الفيلق القبطى المرتبط بالحملة الفرنسية ضد الشعب المصرى مع العلم أن «المعلم يعقوب» ذاته حاول اقتحام البطريركية وكذلك «بطرس غالى» الذى ارتبط بالاستعمار ورأس محكمة دنشواى ، وكان جزاؤه أن تم اغتياله على يد إبراهيم الوردانى .

وتبعه على نفس الخط «يوسف سليمان باشا» وهو قبطى آخر إلا أن اغتياله كان هذه المرة على يد قبطى هو «عريان سعد» .

وفى الحقيقة فان هذا الخط الهامشى المعادى للأمة كان المسئول دائماً عن كل الأحداث المؤسفة التى حدثت مثل أحداث ١٩١٠ على سبيل المثال .

ووفقا للمعطيات السابقة فإن موقف الحركة الإسلامية عن المسألة القبطية يتحدد كالآتى :

أ ــ حرية العقيدة لكافة الطوائف وحرية ممارسة الشعائر .

ب ــ رفض أى شكل من أشكال الاضطهاد بل وحماية الطوائف الأخرى منها .

جـ ــ بما أن الكنيسة القبطية كنيسة مستقلة بل ومتميزة وغير خاضعة للكنيسة الأوروبية .

وبما أن الكنيسة الأوروبية تستهدف دائما القضاء على الكنيسة القبطية وإذابتها فإن الحركة الإسلامية ــ وانطلاقاً من مسئولية المسلمين أمام الله فى حماية حرية العقيدة والوقوف مع المستضعفين ــ فإن الحركة الإسلامية مسئولة عن الوقوف بجانب الكنيسة القبطية ضد المحاولات الأوروبية .

د ــ بما أن الحركة الإسلامية حاليا تمارس نضالها ضد الاستعمار والصهيونية والاستبداد السياسى وبما أن الاستعمار والصهيونية ــ وبحكم العوامل السابقة ــ أعداء طبيعيون للكنيسة القبطية فإن هناك مايدعو للتحالف بين الحركة الإسلامية والكنيسة القبطية .

القوة الثالثة والمجالس (الملّية والإنتلجنسيا)

قلنا إن هناك داخل الكنيسة خطاً رئيسياً يحافظ على تراث الكنيسة فى الاستقلال والفصل بين السلطة الزمنية والدينية وغيرها من المسميات التى تميز الكنيسة على طول تاريخها ويتمثل هذا الخط فى رجال الدين وعامة الشعب القبطى .

وقلنا إن هناك خطا هامشيا تمثل فى المرتبطين مباشرة بالاستعمار وعرفنا خصائصه ومميزاته (يعقوب ــ بطرس الخ) .

والان لنبدأ فى مناقشة القوة الثالثة .

إن خطورة تلك القوة الثالثة والمرارة التى يشعر بها المسلمون تجاهها تنبع من عدة عوامل :

ــ ظروف وزمان نشأة تلك القوة .

ــ ما تطرحه تلك القوة من مبادىء وأهداف.

ــ ماتضم من قطاعات داخل المجتمع القبطى .

ولكننا نضيف هنا أن القوة الأولى وهى الخط المحافظ على تراث الكنيسة مازال هو الخط الرئيسى فى جسم المجتمع القبطى وسوف يكون ذلك الخط دائما دعامة للأمة ومتحالفا مع الحركة الإسلامية وأن الخط الهامشى لايثير أى مرارة لدينا حيث أنه خط عميل لايعكس أبعادا كبيرة داخل المجتمع القبطى ولقد أطلق عليه «الجبرتى» كلمة أسافل القبط .

والعملاء عادة مايوجدون فى كل الطوائف والقطاعات والآن لنبدأ فى مناقشة القوة الثالثة :

١ ــ ظروف نشأتها وتطورها التاريخى ــ أهدافها ــ طبيعتها طوال تاريخ الأمة وحينما كانت اليد العليا فى الأرض للعالم الإسلامى على اختلاف حكامه وآخرها الخلافة العثمانية . فانه لم يكن يوجد سوى الخط الرئيسى داخل الكنيسة والخط الهامشى الذى سبق مناقشته .

على أن تبدلا قد حدث فى العالم . وأصبح لأوروبا اليد الطولى فى هذا العالم . وقد تحقق ذلك على اثر انهيار الخلافة العثمانية ووقوع العالم الإسلامى فى دائرة الاستعمار الأنجليزى والإيطالى والفرنسى وأخيرا الأمريكى .

ولقد تميز ذلك العصر بمميزات كثيرة وتغير كبير فى أشكال الثقافة والعلاقات الاجتماعية وككل شىء فإن المجتمع القبطى فى مصر قد تأثر بتلك العوامل .

الاستعمار يشجع الانتلجنسيا

وكان على الاستعمار هو يدرك جيدا أن الكنيسة القبطية بحكم تراثها وتاريخها هى عدوة له فلا توجد فرصة لاستخدامها .

كما أن الاستعمار يدرك أن العملاء والأسافل قوة لايعتد بها .

وكان أن اختار الاستعمار الانتلجنسيا القبطية لتحريكها لصالحه .

ولقد اختار الاستعمار تلك الفئة لعدة أسباب .

ــ أنها تمتلك المال والعلم (النفوذ) .

ــ أنها لا تتمسك بالتراث القبطى الطبيعى بما أن معظمها قد تعلم فى الغرب .

ــ أن ولاءها للحضارة الأوروبية أكبر من ولائها للكنيسة .

ــ أن مصالحها الاقتصادية والاجتماعية ترتبط بالاستعمار .

وهكذا بدأ ظهور تلك القوة .

ولقد كان أول ظهور لتلك القوة الجديدة أنها استطاعت أن تفرض نفسها على المجالس الملية التى أدخلها الأنبا كيرلس للإشراف على الشئون المالية والمدنية للكنائس .

وبدأ الصراع يحتدم بين الأكليروس الذى يمثل الكنيسة القبطية المحافظة على التراث وبين تلك الانتلجنسيا أو القوة الثالثة ممثلة فى

المجالس الملية .

ولقد تجلى هذا الصراع فى محاولة تلك المجالس التحكم فى شئون الكنيسة مما دفع البطريرك «كيرلس الخامس» إلى التصدى لها . وكان يرأس المجالس الملية فى ذلك الوقت «بطرس غالى» .

على أننا نستطيع أن ندرك القطاعات التى يمثلها كل من الأكليروس والأنتلجنسيا إذا أدركنا أن الشعب القبطى وقف مع البابا يوحنا .

ـ بطرس غالى ومعه أغلبية المجلس الملى يستعين بالاحتلال . وبالخديوى ويستصدر منه قراراً بتعيين بطريرك آخر مكان الأنبا كيرلس الخامس .

ولقد انتصر الأكليروس ومعه الشعب القبطى الذى تجمع ومنع الأنبا الجديد من دخول البطركخانه وراح يهتف ارجع يا محروم .

وعاد البابا كيرلس . وشارك الاقباط جنبا إلى جنب فى ثورة ١٩ مع المسلمين ضد الأنجليز .

وظهرت القوة الثالثة مرة أخرى فى ١٩١٠ على أثر اغتيال بطرس غالى رئيس الوزراء المرتبط بالاحتلال الأجنبى ، وحاولت تلك القوة استثمار الحدث ودعت إلى مؤتمر قبطى فى محاولة للنفوذ داخل قطاعات المجتمع القبطى . ولقد تبنى ذلك المؤتمر ماسمى وقتها

بحقوق الأقلية . وهى نفس المطالب الذى طالب بها البابا شنودة نفسه فيما بعد .

وحدث استقطاب حاد داخل المجتمع المصرى وتم إقامة مؤتمر إسلامى ردا على هذا المؤتمر القبطى إلا أن العاصفة مالبثت أن هدأت .

اكتشفت القوة الثالثة : أنه لا مناص لها ولكى تنفذ إلى أعماق المجتمع القبطى فإنه لابد من السيطرة على الأكليروس ليتسنى لها تنفيذ مخططاتها استنادا الى ماتمثله الأكليروس من قوة مادية ومعنوية أثبتت الأيام دائما مدى صلابتها .

وهكذا فإنه وبانتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ عدد من الشباب خريجى كليات الهندسة والحقوق ومن المتخصصين فى الآداب والفلسفة يقدمون أنفسهم الى الأديرة طالبين الالتحاق بسلك الرهبنة .

وهكذا فإن القوة الثالثة بدأت تعمل على محورين :

أ ـــ اختراق الأكليروس

ب ـــ عمل جمعيات تعمل فى النشاط المسيحى مثل جمعية الأمة القبطية التى أصدرت الكثير من المنشورات تطالب بالحكم الذاتى .

ـــ العمل فى المهجر (أمريكا وكندا ـــ استراليا ـــ أوروبا) بما يمثله ذلك من تدفق الاموال والنفوذ السياسى .

وفى مجالات القوة الثالثة الدائبة فى الوصول الى أغراضها فإنها سعت ١٩٥٩ الى انتخاب البابا كيرلس السادس ولكن البابا كيرلس لم يكن يمثلهم تماما وإن كان قد فتح لهم الباب واسعا للنفوذ داخل المجتمع القبطى عبر مدارس الأحد ـــ التى أسسوها . عبر إنشاء أبرشيات جديدة يتولون رئاستها أو السيطرة عليها .

وعبر إنشاء علاقات واسعة مع مجلس الكنائس العالمى المشبوه والمرتبط بالمخابرات الأمريكية عبر إنشاء حلقات الوعظ أو المعاهد المتخصصة الخ .

القوة الثالثة تسيطر على الكنيسة

فى ١٩٧١ مات البابا كيرلس ، وكان من الطبيعى أن الزحف الطويل والمنظم للقوة الثالثة سيسفر عن سيطرتها بالكامل على الكنيسة وهكذا جاء البابا شنودة .

وكانت الأوضاع بعد ١٩٧١ كالتالى :

ـــ تيار يريد الحفاظ على تراث الكنيسة فى الاستقلال والتمسك بالفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية . وكان هذا التيار قد تم ازاحته بعد اضعافه .

ـــ القوة الثالثة أو قوى الانفصال عن الوطن والارتباط بالاستعمار الغربى . وكان قد وصل الى السيطرة على منصب

البابوية وجزء كبير من الكنائس .

ولقد ارتبطت تلك القوة بمجلس الكنائس العالمى المشبوه مخالفة بذلك كل تراث الكنيسة ــ ومرتبطة بالاستعمار الأمريكى .

ولقد ساعدت الظروف العالمية وقتها هذا التيار على النحو التالى :

ــ العالم الإسلامى ومصر وهم يمرون بمرحلة شديده الصعوبة هزيمة ٦٧ ، مما بدا وقتها أن الوقت قد حان لضرب العالم الإسلامى الضربة النهائية .

ــ تواجد الاستعمار الأمريكى فى المنطقة وارتباط مصر سياسيا واقتصاديا .

ــ موارد ضخمة سياسية ومالية تأتى من المهجر .

وبدأت تلك القوة فى ممارسة استعراض قوتها بعد ستة أشهر من انتخاب البابا شنودة فقط وذلك فيما سمى بأحداث الخانكة ولقد قام القسس والأساقفة يتقدمون موكبا ضخما من الأقباط فى زحف شبه عسكرى للسيطرة على موقع فى الخانكة حدث حوله احتكاك على أثر محاولة بناء كنيسة به .

ثم توالت الصدامات بعدها

مطالب وأهداف تلك القوة

أ ــ تدعى تلك القوة أن مصر لها وأن الأقباط فقط هم سكان مصر وأن المسلمين ماهم الا عرب وفدوا من الجزيرة العربية .

ب ــ يطالب البابا شنوده بنوع من الاستقلال الذاتى بالصعيد للأقباط .

جـ ــ يرفض أن تكون الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع .

د ــ يطالب بنصيب اكبر من السلطة للأقباط .

وبرغم أن تلك المطالب تبدو غير معقوله ولا مقبوله ثم هى محاولة غربية بفرض وصاية على أغلبية الشعب المسلم فيما يمس حياته فإننا ننبه الى :

ــ عدم حق البابا شنودة فى الانفصال .

ــ عدم حق البابا شنودة فى تحديد مصدر التشريع فهذا أمر يقرره أغلبية السكان وليس من حق الأقلية أن تفرض رأيها على الأغلبية .

أما مسألة بناء الكنائس ــ حوادث الاضطهاد الفردية فهى أمور يمكن مناقشتها .

وأخيرا . فإننا نثق ثقة مطلقة فى أن صوت الكنيسة المتمسك بتراثها سوف ينتصر فى النهاية وأن الانفصاليين سيتراجعون سريعا .

مع ملاحظة أنه من الخطأ البشع أن يمارس الانفصاليون الأقباط باسم كل الأقباط الأبرياء من هذا ممارسات تضر مستقبل الأقباط فى مصر والمنطقة على اعتبار أنه إذا كانت التوازنات الدولية تسمح بذلك الآن فما أسرع ماتتغير تلك التوازنات كما أن ضعف المسلمين الحالى ماهو إلا انحناءة فى خط سير التاريخ ولن يلبث التاريخ أن يصلحها ويعود بها إلى مساره الطبيعى إننا نؤكد أن الكنيسة القبطية بما أنها مستقلة ومعادية للاستعمار والصهيونية تاريخيا فإن هامش التحالف بينها سيكون واسعا .

الا أننا نرفض التوجهات الانعزالية لقطاع صغير من الأقباط .